الجزء الثالث
المجلد السابع والأربعون

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلّة المجمع العلمي العربي سابقًا »

تموز « يوليو » سنة ١٩٧٢م
جمادى الاولى سنة ١٣٩٢هـ

بقايا الفصاح

البعبع - التابع - الوعوعة

الاستاذ شفيق جبري

أولعت بتصفح معجم من معجمات اللغـة من حين إلى آخر ، وإذا كان كاتب كبير من كتّاب فرنسة في هذا العصر يرى أن المعجمات تشتمل على روح الأمّة ولحمها ودمها فلا شك في أن هذه المعجمات تصور الأمم في مجامع نواحيها ، فهي تصور أخلاقها وطبائعها وعلومها وآدابها ، إنها تصور حضارتها كلها ، ولكني في هذا المقال الوجيز قد تخليت عن النظر في هذه الأمور ، وحبست هـذا النظر على قليل من بقايا الفصاح وقعت عليها في يسير من صفحات القـاموس المحيط في باب العين . إن مثل الألفاظ في اللغة كمثل المخلوقات الحيّة في الطبيعة، فكما أن هذه المخلوقات خاضعة لقوانين خاصة مثل تنازع البقاء أو التطور أو الانتخاب الطبيعي أو غير ذلك من القوانين فكذلك الألفاظ فإنها خاضعة للقوانين نفسها ، فلها حياتها الخاصة ، إنها تولد فتعيش فتموت ويطرأ عليها ما يطرأ على المخلوقات

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحية، فقد يتصرف فيها أبناؤها مختلف التصرف ، فمرّة يقلبون معانيها من الحقيقة إلى المجاز ،ومرّة يغيرون حركاتها ، وحيناً ينقلونهامن معنى خاص إلى معنى عام، أو من معنى عام إلى معنى خاص ، وحيناً يضيقون معانيها أو يوسعونها إلى غير ذلك من الأمور التي لا يحتمل هذا المقال التبسط فيها .

لقد قلبت النظر في باب العين في القاموس المحيط ، فمررت في صفحات قليلة بألفاظ تصرّفت العامة في معانيها وحركاتها ، وبأمثالٍ لست أدري أيصلح التمثل بها في هذا العصر .

فمن الألفاظ التي تصرفت العامة في معانيها وحركاتها البعبع ، فالبعبع في اللغة ، بفتح البائين ،حكاية صوت الماء المتدارك إذا خرج من إنائه ، هذا من جملة معاني هذه المادة .

ولكن كيف استفاضت هذه اللفظة فيلغة العامة ؟ لا ريب في أنها لم تفهم معناها اللغوي ، إلاّ أنها إذا لم تلتفت إلى هذا المعنى ولم تهتم به فقد استطاعت أن تستخرج من لفظة البعبع صورة التخويف ، فهل من صلة بين صوت الماء المتدارك إذا خرج من إنائه وبين التفزيع والتخويف ؟ قد يكون شيء من ذلك ولو أنه ضعيف، فإذا أرادت الأم أن تخيف طفلها وتفزعه قالت له : جاء البعبع ، فيسكت ،فاستعارتالعامة منصوت الماء صورة رجل يخوّف ويفزّع، وأحيت لفظة البعبع في لغتها ، وكما تصرّفت في معنى اللفظة فقد تصرفت في حركاتها فضمت البائين بدلاً من فتحهما ، وإني أرى أن حركة الضم في هذا الباب تعطي اللفظة قوة في التخويف أكثر من حركة الفتح . أفرأينا كيف أن هذه المادة تدل على مذهب من مذاهب تربية الأمهات للأطفال ، وهو مذهب التفزيع والتخويف الذي تبطله قواعد التربية الحديثة على ما أظن .

ومن هذا القبيل لفظة التابع ، فالتابع والتابعة في اللغة الجنيّ والجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب ، إلاّ أن العامة في عصرنا لم تجد في التابع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتابعة جنياً أو جنية ، لقد كان في دمشق من ستين سنة أو أكثر خصائص لبعض أهل البيوتات ، من جملة هذه الخصائص أنه كان لأصحاب البيوتات خادم يتبعهم ، فإذا ركب أحدهم بغلة مشى الخادم وراءه ، ولا أزال أذكر وجيه حيّ الشاغور الشيخ سليم الكزبري ، لا أزال أذكر بغلته البيضاء وخادمه الذي كان يمشي وراءه إذا ركب البغلة حتى يصل إلى مسجد بني أمية ، وإذا سهر أحدهم في ليلة من ليالي الشتاء في بيت من البيوت غير بيته حمل الخادم له الفانوس ومشى قدّامه لفقدان الكهرباء في أزقة دمشق في تلك السنين ، إلا أنهم كانوا يسمون الخادم تابعاً ، فكانت هذه اللفظة شائعة في دمشق في القديم بدلاً من لفظة الخادم ، ولكنها اليوم بطلت ، فقد بطل معناها العاميّ ، فلا تقوم لفظة التابع مقام لفظة الخادم ، فإن العادة التي كانت تدلّ عليها قد بطلت ، فليس لوجيه يومنا هذا بغلة يركبها ويمشي تابعه وراءه ، وليس للفانوس حاجة ، فلا يحمله التابع ويمشي قدّام الوجيه حتى لا يقع في الوحل أو حتى لا تعثر به قدمه ، فالكهرباء في أزقة دمشق كلها ، فهذه المادة التي تصرّفت العامة في استعمالها فنقلتها من معنى إلى معنى لم يبق لها أثر في لغة العامة للأسباب التي تقدّم ذكرها وعلى كل حال فقد كانت تدل على حالة اجتماعية في دمشق .

وأخيراً من الألفاظ التي تصرّفت العامة في معانيها لفظة : الوعوعة : إنّا نجد في اللغة أن الوعوعة صوت الأسد والكلاب وبنات آوى ؛ ومنه حديث علي رضي الله عنه استشهد به شارح معجم الفيروزابادي : وأنتم تفرّون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد .

غير أن العامة يومنا هذا قلبت معنى هذه المادة من وجهٍ قويٍّ إلى وجهٍ ضعيف ، فلا شك في أن وعوعة الأسد تدل على القوة ولكن العامة إذا قالوا : وعوعة فلان ، أو فلان يوعوع ، أرادوا بذلك ضجته التي لا فعل بعدها ، ولم يريدوا بها ضجة الأسد ، فالوعوعة في لغة العامة تدل على القول دون الفعل ، فإذا وعوعت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جماعة من الناس فليس في وعوعتهم ما يخيف ويفزع ، فقد تطير ضجتهم في الهواء دون شيء من الآثار ، فهي مثل الجعجعة : أسمع جعجعة ولا أرى طحناً ، فهذا المثل يضرب للجبان يوعد ولا يوقع .

وفي أمثالنا القديمة : هنًّا وهنًّا عن جمال وعوعة ، وهو رجل من قيس بن حنظلة ، أي ابعد عنها وقيل معناه : إذا سلمت لم أكترث بغيرك ، كما تقول : كل شيء ولا وجع الرأس .

وعلى سبيل الاستطراد إني أرى أن الأمثال تدلّ على حالات تتصل بالمجتمعات ، حالات في الأخلاق والطبائع ، حالات في الحياة كلها ، في الحياة الاجتماعية والسياسية وغيرهما ، فهي داخلة في ميراثنا الأدبي ، سواء أصدرت عن جماعة أم عن فرد ، وسواء أقيلت في الجاهلية أم بعدها ، ولكن الذي نريد أن نعرفه : هل تصلح هذه الأمثال لكل عصر ولكل زمن ؟ فإن أكثرها يحتاج إلى شرح طويل وإلى توضيح الحالات التي قيلت فيها ، فهل يتسع وقتنا في هذا العصر للبحث عن معنى كل مثل وعن أصله وقائله وغير ذلك ، إني أعتقد أن قليلاً من الأدباء الراسخين يعرفون معاني الأمثال القديمة وأصولها ، فما قولنا في الذين لم يتعمقوا في الأدب ؟ من هذا يتبين لنا أن أمثالنا القديمة على حكمتها حيناً وعلى روعتها حيناً لا تصلح كلها للتمثل بها في كل عصر ، إن العصر الذي نعيش فيه انما هو عصر السرعة ، فإنا نفضل اللغة المألوفة الصالحة لكل زمن ، إنا نفضل الكلام الذي يفهمه الناس دون شيء من الجهد ، فما يصلح لعصر من عصور اللغة قد يجوز أنه لا يصلح لعصر آخر ، على الرغم من بعض أمثال سهلة ، رقيقة ، عزيزة علينا لأنها تتصل بأدبنا الذي نحرص عليه ، وهذا موضوع قد يصح الرجوع اليه .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net